تاريخ القبيلة في الجزائر بمفهوم خلدوني

د. مجبري سلمة أ. مجبري حسان
جامعة الجلفة

مقدمة:

عن الانتماء القبلي والعصبية سنتطرق إلى مفهوم العصبية القبلية، والأسس التي قامت عليها والأسباب المؤدية لبلورتها، و كيف برزت كسلوك ممثل للجماعات، ولكن قبل ذلك أردنا تقديم رؤية أو صورة مبسطة عن مفهوم البداوة من خلال مقدمة ابن خلدون عبر تسليط الضوء على طبيعة المجتمع البدوي العربي تحديدا كرؤية تاريخية، والتطرق إلى القبيلة العربية لأنها اقرب إلى مفهوم الانتماء القبلي .

– البداوة في المجتمع العربي :

إن البداوة نمط معيشة خاص يقوم في الأساس على تربية المواشي والرعي والترحال تلاؤما مع البيئة الصحراوية، فقد نشأ هذا النمط في البادية (أي البداية أو بدء الحياة في الصحراء) وتكون تاريخيا نتيجة لتفاعل دائم وطويل مع هذه البيئة استجابة لحدودها وقسوتها ومتطلباتها[1].

إن البيئة الصحراوية هي التي حددت في الأساس حجم الجماعات التي قطنتها وأصنافها، والتنظيم الاجتماعي المتبع من قبل هذه الجماعات وأساليب معيشتهم وقيمهم وعاداتهم ومعتقداتهم .

– مفهوم البداوة :

ومن اجل إدراك دقيق لمفهوم البداوة، كان لابد من تحديد مفهوم البداوة لغويا واصطلاحا .فهو من الناحية اللغوية أخذت من بدو وتعني بدا الشيء يبدو بدوا أي ظهر، وأخذت كلمة بدو من البادية واسم للأرض التي لا حضر فيها ويسكنها أهل البدو الرعاة المتنقلين، فإذا من الحضر إلى المراعي والصحاري قيل :بدوا بدوا بداوة . والبدو خلاف الحضر، وقيل بدوا من هذا لأنهم من براز الأرض وليسوا من القرى التي تسترهم أبنيتها والبادية خلاف الحاضرة والبدوي خلاف الحضري والبداوة خلاف الحضارة .

أما البداوة اصطلاحا، فهي تعني الخروج إلى الصحراء المحرقة التي لم تذلل و لم تركب .ويعرف الدكتور إحسان محمد الحسن مصطلح البداوة على النحو التالي :" يستعمل هذا المصطلح في وصف طبيعة حياة الناس الذين يعيشون في الصحاري ويسكنون في الخيام ويتجولون من مكان لآخر بحثا وراء العشب والماء ".

وفي إطار تحديد هذا المفهوم، نجد أن ابن خلدون يرسم صورة تعريفية للبداوة والإنسان البدوي بقوله :"أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد .[2]

– تصنيف البداوة :

صنف ابن خلدون البداوة إلى ثلاث جماعات حسب مدى توغلهم في حياة البداوة وهي: من كان معاشهم في الإبل يمثلون أقصى درجات البداوة، ومن كان معاشه على السائمة مثل الغنم والبقر وهم اقل توغل في الصحراء وأكثر احتكاكا بالقرى والمدن، ومنهم من كان معاشهم على الزراعة.تميز الدراسات الحديثة بين الجماعات البدوية حسب مقاييس متنوعة هناك من يميز بين نوعين من البدو حسب بعد الرعي هما :[3]

الرعاة الرحل الذين ينتقلون موسميا في دائرة واسعة ويهتمون بتربية الإبل بالدرجة الأولى، والأغنام والأبقار والماعز بالدرجة الثانية ويوجدون في شبه الجزيرة العربية، وبادية الهلال الخصيب وسيناء، والصومال والسودان، والصحراء الكبرى في المغرب العربي .

هناك أصناف الرعاة الذين يمارسون الزراعة في الواحات والقرى التي يقيمون بها خلال فصلي الخريف والشتاء ويهجرونها في فصلي الربيع والصيف إلى الصحراء، وتكون دائرة ترحالهم ضيقة (ويهتم هؤلاء أيضا بتربية الأغنام والماعز والقليل من الإبل، ويوجدون خاصة في أطراف شبه الجزيرة العربية والمغرب).

وتصنف القبائل أيضا حسب النسب والمكانة الاجتماعية، فيقال إن الجزيرة العربية

والبادية السورية ثلاث أقسام من القبائل وهي:[4]

أولا:القبائل العربية ذات العصبية التي تفخر بأصولها وتتعادل في الكفاءة والمجد والنسب مثل قبائل (عنزة، قبيلة رولة، شمر، المطير، الظفير، وبن مرة).

ثانيا: القبائل ذات العصبية :ولكن لا تستطيع رد أصولها إلى اورومات عربية .

ثالثا: القبائل التي لم يكن يعترف له البدو العرب بالأصل:فلم يصاهروها ولم يحاربوها (باعتبارها ضعيفة)، وأسموها(صلبة)والتي كانت قبائل تابعة (هناك صلبة التابعين لشمروصلبة العمرات، وصلبة رولة) وهناك القبائل المتشتتة التي تعتبر اقل مكانة اجتماعية

وتمارس أعمال الفلاحة المحدودة، الحدادة والخدمة ويترك أمر حمايتها للقبائل ذات العصبية.

– القيم البدوية:

تستمد قيم البداوة من تفاعل البدو مع بيئتهم وضرورات التلاؤم مع النظام القاسي الذي تفرضه الصحراء فلا يجوز أن نتناولها من منظور حضري ونبحث في حسناتها وسيئاتها، بل يجب أن نتفهم طبيعتها ومصادرها وارتباطها بالواقع، إذا ما نظرنا إلى القيم البدوية من منظور بدوي وعلى أنها مرتبطة بعملية التلاؤم مع حياة الصحراء، بإمكاننا أن نصنفها إلى خمسة اتجاهات رئيسية[5]:

– قيم العصبية.

–قيم الفروسية.

– قيم الكرم والضيافة.

–قيم الحرية الفردية.

–قيم المعيشة.

–البنية الاجتماعية البدوية :

ينتظم البدو في قبائل أو عشائر وأفخاذ وحمولات وبيوتات تجمعهم عصبية لأصولهم وروابطهم الدموية إلى درجة تغلب عندها روحية الجماعة على الفردية، والمساواة في الحقوق والواجبات على التفرقة و التمايز، وتتكون البنية الاجتماعية البدوية من ثلاث دوائر رئيسية هي :

– البيت أو العائلة الصغيرة:

التي تسكن خيمة أو منزلا واحد، وتشمل عادة الأب وإلام (أو أمهات) والأبناء وزوجاتهم، والبنات غير المتزوجات والأحفاد و الحفيدات، وتشكل محور النشاط المعيشي اليومي، ولكل بيت أو عائلة قطيعها الخاص .

- الفخذ:

ويؤلف الفخذ (اوالحمولة)دائرة ثانية إذ يتشكل عادة من عدة بيوتات تنتسب إلى جد واحد، يعود حوالي خمسة أجيال سابقة، ويكون الفخذ محور النشاط الدفاعي، حيث يشكل الفخذ وحدة دفاعية إلى أن قامت الدولة وسيطرت على قبائل و مثلا على ذلك، أن الحروب القبلية في الجزيرة العربية انتهت بقيم الدولة السعودية، إلا أن الفخذ ما يزال حتى الوقت الحاضر يشكل وحدة عسكرية مهمة في الحرس الوطني، وتقع ملكية الآبار عادة في الأفخاذ، ويحل معظم بيوتات الفخذ المنطقة ذاتها في كل فصل ومع انه لكل بيت قطيعه الخاص، غير أن جميع قطعان الفخذ توسم موسما واحدا وتعتبر كأنها ملك مشترك للفخذ، وكما يتساوى الأفراد في عائلة تتساوى البيوت في الفخذ الذي تكون له مجالسة وتكون قرارات فيها بالإجماع، ولا يكون لها قائد واحد إلا في حالة الحرب .

- دائرة القبلية أو العشيرة:

التي تتألف من عدد الأفخاذ(عادة بين أربعة إلى ستة أفخاذ.)، وتكون العشيرة أو القبيلة محور النشاط السياسي ويلعب الشيخ دورا مهما في هذا المجال، وتشكل القبلية أو العشيرة، الدائرة الأشمل أو الإطار العام الذي ينتمي إليه جميع الذين ينتسبون إلى جد أو أصل في الزمن الماضي البعيد، وتكون وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية من حيث شبه اكتفاءها الذاتي وصلتها بالقبائل الأخرى والمجتمع والعالم .[6]

- القبلية في المجتمعات العربية:

سنحاول تناول مفهوم القبيلة ومفاهيم المقاربة له في المجتمع العربي الإسلامي .

- مفهوم القبيلة:

من خلال التعاريف اللغوية الفيلولوجية أن القبيلة ترجع في أصلها إلى أب واحد ومنه تتفرع الأنساب والسلالات كما تتفرع الأغصان ن الشجرة، فابن خلدون يشير إلى أن : " النسب أمر وهمي لا حقيقة له[7] "، بل هو ميكانيزم تلجأ إليه القبيلة بطريقة لا شعورية من أجل إعادة صياغة علاقة التعاون والالتحام بين أفرادها باعتبارها طبيعة وقاعدة أساسية للإنسانية.

- القبلية من منظور علماء الأنساب:

تعد القبيلة المجتمع الأكبر لأهل البادية، وعلى الرغم من أن مصطلح "قبيلة" اندثر في كثير من المجتمعات سواء في الغرب أو الشرق، قام علماء الأنساب بترتيب قبائل العرب ترتيبا تنازليا باختلاف طفيف بينهم سموه بـــ طبقات النسب، كالآتي:

- العشب: مثل عدنان وقحطان.
- القبيلة: مثل ربيعة ومضر.
- العمارة: مثل العمار قريش والقبيلة كنانة.
- البطن: مثل بني عبد مناف.
- الفخذ: مثل بني هاشم.
- العشيرة: بني عبد المطلب.
- الفصيلة: مثل بني أبي طالب وبني العباس.
- ويمكن إضافة طبقتين عل طبقات النسب وهما:
- الخامس: وهو الجد الخامس أو الجد المشهور الذي تعرف به الأسرة.

– الأسرة: وهي اصغر طبقة في النسب[8].

وعلى الرغم من أن علماء الأنساب العرب يكادون يتفقون على ما تقدم من ترتيب طبقات النسب، إلا أم حركات هجرة القبائل، سواء كانت طوعا أو كرها جعلت هذا الترتيب غير مستقر، إذ ذابت البطون والأفخاذ، وقلما استخدمت مصطلحات العمارة والفصيلة، وصارت وحدة العشيرة أكثرها شيوعا بل صارت تستخدم لتغطي معنى القبيلة أحيانا بعد أن أصبح هناك خلط شديد بين المقصود من البطن أو الفخذ.

– خصائص القبيلة: تتجلي الخصائص فيما يلي :

– المساواة:

يقوم المجتمع القبلي في كثير من مظاهره ومضامينه إلى المساواة والعدالة بالمقارنة بمجتمع المدينة، وهذا ما يدل عليه ضعف الفروقات بين أفراد القبيلة، كما يغطي التضامن القبلي بين الأفراد والمجموعات الفوارق الفردية ويضعفها، فالطبقية الهرمية تكاد تختفي في القبيلة لأن الملكية مشتركة في أغلب الأحيان.

لكن القول بمبدأ المساواة في المجتمع القبلي المغاربي التقليدي يجب أن لا يذهب بنا إلى ما ذهب إليه دارسو الحقبة الاستعمارية، حينما بنو فرضيات واهية حول الديمقراطية القبلية وانعدام التربية الاجتماعية والسياسية، ومعلوم أن هذه الصفة التصقت بالمجموعات " البربرية " بهدف تكريس مبدأ الاختلاف و الانقسام داخل البناء الاجتماعي المغاربي.

صحيح أن طبيعة المجتمع القبلي ذي التجارب البسيطة في تقسيم العمل، وذي القاعدة الاجتماعية الصلبة القائمة على مبدأ التضامن، توحي بغياب التدرج والهرمية، وتوحي بالمساواة بمعناها العام، لكن ذلك لا يمكن أن يخفى وجود التفاوت في توزيع الثروة والسلطة، وبالتالي الجاه، بين المجموعات المكونة للبناء القبلي، إن العلاقات القائمة على رابطة الدم تمثل غشاء إيديولوجيا يحجب التفاوتات والفوراق وما ينتج منها من تناقضات بين مختلف الشرائح الاجتماعية، وتوجد عوامل خارجية (تدخل الدولة) تتمثل في ابتزاز أوفر قسط ممكن من فواضل الإنتاج لدى هذه المجموعات عن طريق الأنظمة الجبائية فتضعف نتيجة لذلك حدة الفوارق الاجتماعية .

–التدين:

هل الوازع الديني لدى القبيلة المغاربية ضعيفا فعلا، أم لا، العصبية الدينية حاضرة وأساسية في تكوين القبيلة والتحامها كما يرى " ابن خلدون" يمنك التمييز بين المرحلة التي خصها ابن خلدون بالدراسة وهي القبيلة العربية في العصر الوسيط، حينما كان الالتحام القرابي يستند إلى عصبية دينية تمثل الرابطة التي يجتمع حولها المجتمع القبلي، والمراحل الحديثة لمعاصرة حيث لا يعلب التدين الدور المركزي في التحام القبائل فوجود القبائل ظل حتى وقتنا الراهن يتمركز حول التشارك في العصبية القرابية (الحقيقية أو الوهمية – الضيقة أو الواسعة) وحول التشارك في استغلال الفضاء والتحرك فوقه، وإذا ما وجد روابط روحية بين الجماعة القبلية، فإنها ظلت رهنية وجود زاوية أو طريقة لا تشكل في حياة الجماعة غير جزء من نشاطها الموسمي، أم الرابطة الدينية (الإسلام) فهي أوسع في النظام القبلي، إنها قاعدة الانتماء الواسع إلى المجتمع الشامل. لقد مثل هذا الانتماء كما أشار إلى ذلك "غيلتر" الرابطة الواسعة التي جمعت مختلف القبائل إلى فضاء حضاري أشمل. منع من التفرق وقلص من التهميش، وبالرجوع إلى الاعتراف والنظم الداخلية للقبيلة المغاربية يتضح مدى اعتماد تشريعاتها على قواعد إسلامية، حتى في أسوء أحوال توتر علاقاتها بالمركز القريب أو البعيد[9].

– الحرية:

لقد كان دفع المجبى بالنسبة إلى القبائل، وفي مختلف المراحل، تعبيرا عن الخضوع إلى المركز السياسي. و سادت في بعض المراحل علاقات ما بين قبلية على تحكم القبائل القوية في القبائل الضعيفة عبر فرض الإتاوات عليها. وقد اتخذت تلك العلاقات عدة أشكال تراوحت بين التحالف والحماية والإخضاع، فأصبحت الضريبة رمزا للتميز في المجتمع القبلي، لبن القبيلة صاحبة " الملك " والقبائل المسودة[10]. وخصوصا تلك التي كانت تعيش على الحل والترحال دون أن تضبطها حدود، وكانت تعتبر نفسها كيانا حرا شبه مستقل، ذلك ما جعل القيادة كبناء اجتماعي شبه مغلق ترفع في بعض المراحل شعار الحرية تجاه مختلف أشكال التدخل في فضاءها، ولذلك كثر التمرد في تلك الفضاءات قديما وحديثا، وفي جهة أخرى فقد أفرزت القبيلة المغربية في العصر الحديث قيادات وطنية واجتماعية كان لها دور بارز في التاريخ السياسي، انطلاقا من مبدأ الحرية الذي يميز حياة المجتمع القبلي.

– جاذبية الأصل (المغرب والمشرق):

يمثل كل المغرب الأقصى والمشرق (الجزيرة) المرجعية الأساسية لانتساب القبائل المنتشرة في شمال أفريقيا، ويتجسد الانتساب الحقيقي والوهمي إلى المشرق في شجرة النسب الراجعة إلى الخلفاء الراشدين و الرسول صلى الله عليه وسلم مثلما يتجسد الانتساب إلى المغرب في شرفاء جنوب المغرب الأقصى من الأدارسة. ويلتقي هذا الانتساب إلى القطبين المشرقي والمغربي في عناصر الشرق والانتماء الديني والأثيني، بما يضفي مشروعية تاريخية على تاريخ الجماعة القبلية.

إلا أن التاريخ الاجتماعي الحديث والمعاصر يتوجه إلى تأكيد أن المغرب كان يمثل بالنسبة إلى الفاعلين الاجتماعيين مجالا متوترا لتحديد الأصول السلالية (الجينيالوجية) لقبائل الجنوب التونسي في غالبيتها، وربما كان ذلك التوجه يفوق التوجه والانتساب إلى الأصول المشرفة.

– تداول الوراثة في السلطة القبلية:

من المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعامل الناس كشيخ قبيلة مثلما لم يعاملهم كملك أو كحاكم كما اعتادوا، فقد رفض هذه الاعتبارات. أما التقاليد العربية فلم تكن تورث الرئاسة، لأن الرئاسة منصب يستحقه الفرد لنفسه، بخصاله وكفاءته[11].

إن فكرة وراثة السلطة القبلية كانت فكرة مضخمة لدى باحثي الحبة الاستعمارية ولعل منشأها وراثة أحكام مناوئة للإسلام، تسربت منذ القرن 18 إلى الاستشراق التقليدي. كما يمكن إرجاع هذا التضخيم إلى التسرع الذي وسم كتابات نموذج (الباحث–الضابط) التي أدى تسربها إلى انتشار الحكم على القبيلة العربية في المغرب العربي، يكونها تقوم على توارث المشيخة والقيادة مقابل النزعة الديمقراطية والانتخابية في القبيلة البربرية.

ليس من الصعب على الباحث دحض تلك الأحكام، باعتبار أن ظاهرة احتكار بعض العائلات أو خطوط النسب لسلطة الشيخ أو القائد ما هي سوى ظاهرة حديثة فضلا عن كونها غير دائمة، لأنها تخضع لعد كل فترة إلى مبدأ الانتقال إلى خط نسب آخر. كما أن الوثائق القبلية وخصوصا تلك المتعلقة بالميعاد، تدل دلالة واضحة على أن السلطة العرفية المحلية كانت تخضع إلى المشاورة والانتخاب لدى أغلب القبائل على مختلف انتماءاتها العرقية .

– التضامن الآلي (الجبرية القبلية):

تشمل الجبرية إحدى محددات الإيديولوجية القبلية. فمكانه الأفراد التي تستوجب الانصهار في الجماعة القبلية تجعلهم لا يعبرون عن إرادتهم الخاصة. بل تتطلب تعبيرهم عن فعلهم الفردي أو الجماعي من خلال إدارة القبيلة، فهم يتصرفون

بالنيابة عنها، عن الفرد حينما كان يغزو أو يمارس الثأر فهو لا يفعل ذلك لنفسه فقط بل من أجل القبيلة، إنه يمارس بذلك فعلا اجتماعيا سياسيا نابعا من قهر الجماعة الذي يمنعه من ممارسة فعل مغاير لذلك الفعل.

على أن هذه الجبرية ظلت صفة تميز البناء القبلي حتى القرن 19 حينما بدأت الكيانات في التفكك مع ظهور أشكال جديدة من الاندماج عوضت الاندماج القبلي واستبدلت التجند القبلي. لقد مثلت القبيلة عبر التاريخ الملجأ الحصين للفرد، كما مثل التضامن القبلي وسلة الدفاع الأساسية ضد كل أشكال القهر المسلط من الخارج، وما دامت الخيمة تمثل الوحدة السكنية التي ظلت تصاحب البناء القبلي، فقد أصحبت رمزا لتماسك القبيلة ووحدة بنائها القاعدية. باعتبار أن الخيمة تمثل الوحدة الاجتماعية الصغرى ممثلة في الأسرة الزوجية فلعل الخيمة بطريقة بنائها و بمرتكزاتها وحمايتها للأفراد تمثل خير معبر عن القبيلة كغطاء يضم ويحمي مختلف الفروع العشائر ويسندها.[12]

–القرابة والعصبية القبلية في المجتمع القبلي العربي:

تتميز القبيلة العربية بمظهرين أساسين يتمثلان في كل من :

– القرابة:

هي علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية ولا يعني اصطلاح القرابة في الانثربولوجية علاقات العائلة والزواج فقط بل يعني أيضا المصاهرة، لكن القرابة هي علاقة دموية، والمصاهرة هي علاقة زواجيه، فعلاقة الأب بابنه هي علاقة قرابية بينما علاقة الزوج لزوجته هي علاقة مصاهرة، حيث يعتبر الطفل وليد أبويه في معظم المجتمعات .[13]

إن القرابة مرتبطة بالدم حيث يعد هذا الدم رمز لعدة رموز منها النجاسة والدناسة، ومنها ما يشير إلى رموز الأصالة والشرف والانتساب إلى القبيلة والعائلة أو الجماعة، حيث هناك أمثال حول الدم كا"الدم ما يولي ماء"يعبر المثل الشعبي عن التجذر والتواصل بين الأجيال والجماعات أو في اتخاذ المواقف الجريئة دفاعا عن العصبيات العائلية وتمسكا بالجذور القبلية[14] ونقول من " دم واحد" أي من أصل واحد أو عصب واحد .....أو قرابة الدم فهناك من يعتقد أن أصالة النسب والاسم تنتقل جيلا بعد جيل عن طريق الدم والقرابة .

–والقرابة نوعان هي القرابة الأولية، والقرابة الثانوية وهذان النوعان وجد في معظم المجتمعات العربية التقليدية منها، والحديثة .

– القرابة الأولية:

هي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الوالدين بالأبناء، كالعلاقة التي تربط الأب بالأم، والأخ بالأخت بينهما قرابة .

– أما القرابة الثانوية:

فهي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الجد بالخال وبنت الاخ مع العم وغيره.وفي القبائل كانت القرابة الدموية تتكون من خلال الانحدار من جد مشترك، وهناك ثلاث قبائل يعود نسبها إلى أب واحد (قبيلة تنوخ وقبيلة العتق، وقبيلة غسان).[15]

فالمنجدرون من جد مشترك يمكن أن يطلق عليهم أعضاء الدموية الجماعات والفرد الذي ينتمي إلى جماعات دموية مختلفة يمكن أن يعرف خط النسب النهائي لأجداده، فانتماء الفرد إلى أموية يمكن أن يجعله عضوا في جماعتين دموية وهكذا يعتبر الفرد إذن في خط قرابي واحد إذا كان ينتمي إلى حد مشترك.

– مفهوم العصبية:

إن العصبية تبدو عند ابن خلدون بمثابة المحور الذي يدور حوله معظم الأبحاث الاجتماعية وتتصل به جميع مباحث الاجتماع السياسي خاصة ومن ثم يمكن لنا أن نقول بأن العصبية، هي حالة ذهنية عاطفية تظهر في العلاقات والسلوكات التي تتسم بها مجموعة من البشر في حالة البداوة التي تأخذ بيدها إلى الملك والسلطة، وتبرز مرة[16]أخرى كنتيجة للصراعات التي تظهر في المدينة أو الدولة ولها أطوار تمر بها ومطاف تنتهي إليه[17] وقد ترجم مؤلفون آخرون، هم في الواقع علماء اجتماعيون أكثر منهم إيديولوجيون، العصبية:

بالتضامن الاجتماعي – الالتحام القبلي – الروح العمومية

الذهنية العشائرية. – القرابة بالعصب. – الالتحام الاجتماعي بالعصب... إلخ

وهذه التعريفات لا تؤدي إلى المعنى الحقيقي للمفهوم في جميع أبعاده، غير أنها أحسن إلى حد ما من الأولى لأنها لا تنطوي على تفسير خاطئ، وهي لا تزدري التاريخ، وفي الواقع فإنه يتعذر نقل مفهوم " العصبية " إلى اللغات الأخرى. فليس للعصبية مرادف في اللغة الفرنسية، ولا في اللغة الإنجليزية لأنها كلمة متقلبة ومتغيرة. لذا فإن الدراسة الجدية والمعمقة عي وحدها الجديرة بأن تسمح لنا بأن نرى الأمور على حقيقتها وتسمح لنا بالتالي بأن نشق الحلقة المفرغة.

فكلمة العصبية، كلمة عربية الأصل، مشتقة من لفظ " عصب " الذي يعني حرفيا : ربط، تجمع، شد، أحاط، اجتمع ... الخ، ثم عن عددا من الكلمات المشتقة من نفس الأصل، تتضمن نفس الفكرة.

– عصب (جعل شخصا على رأس الحزب) .– تعصب (عصب رأسه بعصابة، كان تعصبا) – انعصب (أصبح قاسيا) – عصب (عمامة) – عصب (نخبة قبيلة، عصب) – عصابة (جماعة من الرجال) – عصابة (جماعة من الرجال) – معصب (زعيم، سيد) ... إلخ وما يزال أصل الكلمة " عصب " متداولا في جنوب الجزائر بين النساء اللواتي يعصبن ترجمة " L.GAUTHIER" ف " ليون غوتيه " رؤوسهن بوشاح كما أن مفهوم العصبية ترجم إلى معان مختلفة الذي يظهر بين أفراد القبيلة أو الطائفة الواحدة . ESPRIT DE CLAN روح التكاثف.

ترجمه " ديسلان " " DE SLANE " بروح التكاثف " ESPRIT DE CORPS " الذي يظهر بين الأشخاص المنتسبين إلى المهنة الواحدة أي الذين يمثلون كتلة، وجسما واحدا.

وهناك من رآها كلمة مرادفة لما يسمى اليوم بالقومية بمعنى أنها تحمل معنى عرقيا كالقومية الألمانية ... الخ .

وهناك من رأى بأن العصبية مفهوم عقائدي لطبقة معينة هي البدو تريد التسلط على المدينة والفوز بالسلطة، ولكن هذا المفهوم لا يتسم بالعرقية إنما بالطبقية، وهناك من أخذ العصبية في مفهومها اللغوي وقال بأنها الرابطة الدموية ابن خلدون استعمل المصطلح بمعنى أوسع من ذلك بكثير حيث ادخله في نطاق مفهوم العصبية الروابط الاجتماعية و يتدخل CONCEPT SOCIOLOGIQUEالظواهر التكاتفية والتناصرية وبذلك أصحبت العصبية مفهوما اجتماعيا في المجتمعات ويسيرها[18] .

– العصبية القبلية:

العصبية حسب ابن خلدون 'هي رابطة الدم والدين التي تر بط بين أفراد قبيلة فيتميزون بها عن سواهم من القبائل، أو بين أفراد عشيرة فيتميزون بها عن سائر العشائر[19]وميزة العصبية أنها توحد نظرة القبيلة أو العشيرة ضمن نطاق واحد (فينظرون إلى أنفسهم والى الكون من منطلق واحد)، كما أن هذه العصبية توحد جهود وممارسات أفراد القبيلة أو العشيرة ضمن نطاق واحد، وتجعلهم يعملون في الاتجاه الواحد، ويفهمون الأمور من منظار واحد أيضا .

وتتجلى العصبية القبلية في العصبية للأقارب وذوي الأرحام، وهذا النوع من العصبية يكون داخل إطار القبيلة ذاتها فعلى الرغم من أن أفراد القبيلة يربطهم نسب واحد، إلا أن الرباط الكائن بين ذوي القربى من أمثال أبناء العمومة والخوالة يكون امتن من النسب العام وأفراد القبيلة يشعرون بالتزامهم بنصرة من يشترك معهم في البيت (الفصلية)ثم تأتي بعد ذلك نصرة المشترك معهم في الفخذ فالبطن ثم العشيرة، ومع أن العصبية للقبيلة اضعف شأنا من العصبية نحو العشيرة، كما ذكر ابن خلدون ذلك " في العشيرة تبدأ العصبية تقل وعند صعودها إلى القبيلة تقل أكثر غير أنها ما تزال موجودة، ولكنها ليست بنفس الدرجة التي كانت عليها في الأسرة، رغم أن أفرادها يشعرون بأنهم يعودون إلى أصل واحد.[20]

كما يمكن أن تتجاوز هذه العصبية نظام القبيلة إلى القبائل الأخرى المتحالفة أو عصبية الولاء، وذلك حين يطلب احد الأفراد الحوار من قبيلة ما، ومن ثم يكتسب حصانة بان يكون تحت حمايتها، وتهب القبيلة لحمايتها كأي فرد من أبنائها .

كما أن التجمعات الصغيرة النابعة من الأسرة لم تفتا أن تتجاوز مرحلة المجتمعات الضيقة إلى مجتمعات اكبر و أوسع وهي تكوين دولة باتحاد عدة قبائل وهذا الاتحاد يتم أما عن طريق الانضمام والتحالف نتيجة وجود قرابة بواسطة مصاهرة أو دفاع، أو بواسطة القهر والتغلب، وفي البداية تكون الدولة صغيرة ثم تأخذ في التوسع والارتقاء تدريجيا إلى أن تتحول إلى دولة كبرى ذات نفوذ واسع وبالخصوص إذا كانت ذات عصبية قوية أرقى من العصبيات الأخرى وذات باس شديد، وهكذا تنتقل من العصبية الضيقة إلى العصبية الواسعة ومن الحياة الفوضوية المفرطة في الحرية أو النظام الضيق إلى الحياة النظامية وان المجتمع بعدما كان يعيش جماعات قليلة متفرقة وليست لها أهداف سامية تعمل من اجل تحقيقها إلا وسائل العيش الضروري التي تعمل في سبيل الحصول عليها بطرق عشوائية بسيطة أصبحت فيما بعد مجتمعا منظما خاضعا لقيادة تنسق أعماله وتشرف على نظمه .[21]

– العصبية عند ابن خلدون:

لقد فهم "ابن خلدون" العصبية على أنها الشوكة الفئوية للجماعة التي تحمل المعتمد عليها إلى السلطة بالانتصار له، ظالما أو مظلوما وتدوم السلطة بدوام العصبية الداعمة لها فابن خلدون لم يحلل العصبية لا كمفهوم، ولا كنظام قيم، وقد علل ابن خلدون دوام الملك بدوام العصبية كشوكة ونعرة دم، أي كقوة داعمة لسلطة السلطان، متعاضدة معه، مناصرة له، فقال: " ولا يصدق دفاعهم ولا ذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نعرة كل أحد على نسبه و عصبيته أهم. وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وأقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، و بها يكون التضاعد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم "[22].

ويرى ابن خلدون أن النسب فائدته الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام، فتقع المناصرة والنعرة، ويرى أن النسب أمر وهمي، لا حقيقة له، ونفعه في الوصلة والالتحام.

والعصبية في نظر ابن خلدون، تستهدف الملك[23]، ويعتبر أن ذهاب الملك ذهاب للدولة والدولة تذهب بذهاب العصبية، ويؤكد على أن الأوطان الكثيرة للقبائل و العصائب قل أن تتحكم فيها دولة (كلبنان أو كيوغسلافيا مثلا).

و ابن خلدون يرى إلى أن ليس الملك لكل عصبية، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث المبعوث ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة. فمن قصرت عصبيته عن بعضها، مثل حماية الثغور، أو جباية الأموال، أو بعث المبعوث فهو ملك ناقص، لم تتم حقيقته[24].

وعلى هذا النحو، يكون ابن خلدون قد تكلم، في مقدمته، على العصبية، لاعتبارها قوة وشوكة للجماعة البانية للدولة والداعمة لها، ولكنها قوة وشوكة مؤقتتان، لا تتجاوزان المائة والعشرين سنة، ثم ما تلبثان أن تتبددا وتسقطا برفاه الملك، والتنعم به.

إلا أن العصبية تبقى، بمفهومنا لها على الرغم من ذهابها كقوة مؤقتة، تبقى كنظام قيم، ينصر فيه الأخ أخاه ظالما أو مظلوما، والأخ ليس دائما أخ الرحم، بل قد يكون أخ الإيديولوجية الدينية أو الحزبية وتورث في هذا النظام القيادة والزعامة رحميا، فالابن برث والده أو عمه ويستمر هذا النظام عبر الزمن محركا للسلوك الفردي والجماعي، إلى أن يحدث تغيير في الثقافة والتربية والحضارة، فيتبدل نظام القيم بغيره، فيتبدل معه الإنسان ويتغير.

والعصبية تتجدد حيويتها وتدوم بالتعبير عنها، سواء كان التعبير عنها كقوة أم كنظام قيم، والعنف يضخها بكل الأسباب المجددة لحيويتها ودوامها، إذ العنف تعبير، وتعبير عن صميمها[25].

5- القبيلة في الجزائر:[26]

منذ القرن 4 ق.م كانت الزعامة وراثية محصورة في عائلة واحدة وخير دليل على ذلك إن قبيلة مسيلس سيطرت على نوميديا قرابة ثلاثة كما ان عائلة ماسينيسا تزعمت هذه القبيلة تقريبا في نفس الفترة .

أما في القرنين الخامس والسادس ميلادي فقد أشارت الدراسات والأبحاث إلى وجود ثلاث قبائل كبرى وهي مصمودة، صنهاجة، زناتة، التي كانت تحت الحكم الوندالي والبيزنطي والفرنسي، وبالرغم من الويلات التي لاقتها القبائل الجزائرية والعربية لكنها صمدت وحافظت على بنيتها وثقافتها ولغتها وأرضها، فقد كان هذا المجتمع زراعيا رعويا، الأرض جزء من حياته وسر بقائه ووجوده .

كل بايلك كان مقسما إداريا إلى عدة مناطق، كل منطقة كان يترأسها قائد، كل قائد كانت له سلطة على قبيلة أو عدة قبائل، كل قبيلة أو عشيرة كان يترأسها شيخ أو مجلس من الشيوخ سمي الجماعة، كل جماعة كان يعينها أرباب العائلات، العائلات كانت على العموم عائلات ممتدة، رب العائلة كان عادة اكبر سنا، كل رب عائلة كان مسؤولا لدى الجماعة ويبدو أن هذا النظام كان يسود الريف دون المدينة التي كانت مكونة من فئات، أما في الريف أين يعيش معظم سكان الجزائر، فان البناء الاجتماعي لم يتغير، فالبناء الاجتماعي للقبيلة كان هو المسيطر فقد القبيلة كما كانت دائما، هي الوحدة الاجتماعية والأساسية، لقد كانت مقسمة إلى عشائر وبطون وقد سميت بالدوار او المشتى، كل دوار أو مشتى كان مقسما إلى العائلات الأبوية الممتدة، كل عائلة ممتدة كانت هي الجماعة الاجتماعية التي يتم فيها التفاعل الاجتماعي الأساسي، أما على مستوى القبيلة فان شيوخ القبيلة (الجماعة) هم الذين كانوا يأخذون القرارات الاقتصادية والسياسية، لقد توسطت الجماعة الصراع الداخلي وكانت هي المحاور والمدافع والمقرر في السائل الخارجية، وحتى الضرائب التي فرضها الأتراك على هذه القبائل كانت تقسم على العائلات من طرف الجماعة، أما إذا هددت مصالح القبيلة وفشلت الحوارات السياسية السليمة فتتجلى "في معظم الأحيان القبيلة او القبائل إلى استعمال القوة، ولو كان الخصم الدولة ".

وفي العهد الاستعماري كانت المقاومة منتظمة على أساس قبلي، وأثناء ثورة التحرير الكبرى في سنواتها الأولى انتظم جيش التحرير على أساس القبائل 'وفي بعض الأحيان نجد كتائب بكاملها تتكون من أفراد قبيلة واحدة .'

وبروز ما يسمى بالتسيير الذاتي للعقار الزراعي ولاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ما هو إلا العودة الطبيعية للقبائل إلى أراضيها الأصلية وبالتالي إعادة إدماج التضامن الاجتماعي بالأرض الجماعية بعد طلاق دام 130 سنة .

وعليه فان مفهوم القبيلة تغير وتنحى جانبا، لكن القيم التي يشهدها المجتمع الجزائري ولا يزال يتمسك بها كالتكافل والقرابة ...الخ تثبت استمراريتها بشكل آخر.

إن في المجتمعات القبلية تمثل الزراعة وتربية المواشي أهم إنتاج اجتماعي، بالرغم إن العمل الرعوي يبقى مسيطر، فان الأعمال الزراعية توسعت واستعمال الأدوات الحديدية التي رفعت من الإنتاج وخلق تقسيم العمل، والتخصص في الحرف والتجارة، ويمكن لهذا النظام ان يكون ديمقراطيا وخاصة في القبائل التي يكون فيها الإنتاج الزراعي قليلا، أما إذا كان الإنتاج الزراعي مرتفعا فان استعمال الصيد وأسرى الحرب ممكن، التقسيم الهيرارشي يكون في بداية الأمر حسب الأقدمية ثم يميل ليصبح مبنيا على الثراء، هذا الثراء يكون[27] مصدره في معظم الأحيان قيادة الأرض أو قيادة الحرب، وبسبب وظيفتهم هذه تتحول[28] العائلة إلى صاحبة الامتياز ومن خلال هذا الامتياز تقوم بتحويل جزء من المصلحة العامة والأشياء المشتركة إلى الاستعمال الشخصي، وهنا يصبح الانتقال الى المجتمع الطبقي ممكن، أي الانتقال من الجماعة البدائية إلى المجتمع الطبقي .

وهذا الشكل الجماعي les Clans مع وجود مظاهر الجماعية أو ملكية العصبية للملكية قد تطور حيث أن ' المجتمع الجزائري أسس على مبدأ القرابة الدموية .'او مجتمع متكون من تجمعات مبنية على العلاقات الدموية .

وتظهر البنية الاجتماعية في انطلاقة لفهم تشكيلة المجتمع الجزائري، حيث ان القبيلة في هذا المجتمع أو البنية الاجتماعية في إطار هذا المجتمع هي الوحدة السياسية والإيديولوجية، والاقتصادية فكل قبيلة أو قرية لها حدود معينة، كل قبيلة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء مقسم إلى عائلات، ولهذا فالعائلة هي الوحدة الحقيقية للإنتاج، والإنتاج كان موجها نحو إعادة إنتاج واستمرار العائلة عوض "إنتاج القيمة " الصناعة حيث كانت مترلية تقوم بها النساء، الاقتصاد الرعوي والزراعي متكاملان كل جماعة محلية كانت مسيرة ذاتية السيطرة من طرف مجموعة على مجموعة أخرى وليس من طرف سيد أو مالك على مجموعة محلية قروية 'الملكية كانت مقتصرة على الخيمة وضواحيها المباشرة، الماشية وحق استغلال الأرض، وعلى هذا كانت ملكية الجماعة هي المسيطرة .

كانت الأرض مقسمة إلى قطع حسب كل عائلة، قطعة كل عائلة كان يراقبها رئيسها أو شيخها، مجموع الشيوخ كونوا جماعة تراقب القرية .

هذه الجماعة كانت مؤسسة عل أساس القرابة الدموية، وسميت باسم العائلة المسيطرة تدريجيا أصبحت العائلة المسيطرة لها الحق في التملك كما تمتعت بمكانة مرموقة، وإمكانية الحصول على الدخل من عمل العائلات الأخرى، تدريجيا أدى هذا إلى إزالة الستار على ملكية العائلة وبدأ التحرك نحو الملكية الخاصة وظهرت ملكية العائلة في النماذج الثلاثة للملكية (الملك، الهرش، الحبس) كان التنظيم في المجموعات المحليـــة : القبيلة، الدوار العائلة يسيطر ومع ذلك فان علاقات الاستغلال تبدو وكأنها علاقات الانتاج

وعليه إن علاقات القرابة أو الأشكال المنحدرة منها لا تعرف علاقات الإنتاج، بل إن الاستقلال الداخلي للجماعات هو الذي شق الطريق إلى نسج الطبقات الاجتماعية .

خاتمة:

ومنه نستنتج أن القبيلة اكتسبت منذ العصور القديمة دورا تاريخيا فاعلا في المجالات التي اقترنت بنمط العيش الرحل خصوصا، مشكلة بنية اجتماعية واقتصادية وثقافية مميزة.

فالعصبية القبلية رمزا مهما للبداوة، وذلك لان حياة البداوة تتضمن شيئا من العزلة التي تحد من اختلاط الأنساب، والبداوة أيضا تقتضي وجود العصبية القوية لان الدفاع عن الحي لا يتم إلا على يد أنجادهم المعروفين بالشجاعة، وهذا خلاف الحياة الحضرية التي تتولى فيها الدولة مسؤولية أمن المواطنين وحمايتهم، فالعصبية تلبي احتياجات الأفراد وتوفر لهم الحماية والأمان والطمأنينة وتدفعهم على التناصر والتلاحم في توفير الحماية .

ومن هنا يمكن أن نعد البداوة كنمط للحياة مكنت البدوي من أن يتحول في الأرض غير عائق ودونما حاجة إلى أسوار تحميه وترد عنه الخطر معتمدا على تجربته وتمرسه للدفاع عن كيانه ووجوده .

التهميش:

1-حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي اجتماعي،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت،1995 ص66.

2-علي العبيدي ،مفهوم البداوة قراءة تاريخية من خلال مقدمة ابن خلدون ،مجلة الواحات للبحوث والدراسات ،العدد 15،جامعة حسيبة بن بوعلي ،شلف 2011،ص 269.

3-نفس المرجع ،ص67.

4-فاضل الأنصاري ، الجغرافية الاجتماعية ،منشورات جامعة دمشق ، 1978، ص ص259،275.

5-حليم بركات ، مرجع سابق ، ص73.

6-نفس المرجع،ص 69.

7- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، ط1، بيروت، 1978، ص 19.

8- الأشرف عمر بن يوسف الملك،تحفة الأصحاب في معرفة الأنساب، دار المعارف، دمشق، ط5، بدون سنة، ص 167.

9- محمد عبد الجابري،العقد السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 1990، ص 102.

10 – محمد نجيب أبو طالب،سوسيولوجيا القبلية في المغرب العربي، مركز دراسات الوحة العربية، بيروت، لبنان، ط1، يونيو 2002، ص 106.

11-نفس المرجع، ص 108.

12 – نفس المرجع ، ص 108.

13- دينكن ميتشل ، معجم علم الاجتماع، تر ومراجعة إحسان محمد الحسن، بيروت، دار الطباعة والنشر،ط1986،2 ،ص 88.

14-فؤاد إسحاق الخوري ،إيديولوجية الجسد ،رموزية الطهارة والنجاسة ،لبنان،دار الساقي ،1997،ص56

15-إحسان محمد الحسن ،العائلة والقرابة والزواج ،دراسة تحليلية في تغيرنظم العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي ،بيروت ،دار الطليعة ،1971،ص47.

16 – الصغير ابن عمارة، التفكير العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط2، دون سنة، ص 41.

17 – نفس المرجع، ص 145.

18-الصغير ابن عمارة، مرجع سابق، ص 41.

19-فريديريك معتوق،معجم العلوم الاجتماعية،بيروت،لبنان،1993-1998،ص49.

20-إدريس خضير ،التفكير الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية ،الجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ،بن عكنون ،ط2،بدون سنة ،ص100.

21- نفس المرجع ،ص 100.

22-مقدمة ابن خلدون،دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، ص 128.

23-نفس المرجع، ص 139.

24- نفس المرجع، ص 188.